بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل

سورة النمل سورة مكية، نزلت بعد سورة الشعراء، وقبل سورة القصص، كما ترتيبها في المصحف الشريف.

وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

﴿طسٓ﴾ من الحروف المقطعة التي تحدثنا عنها سابقًا.

﴿تِلۡكَ﴾ أي: هذه الآيات التي في هذه السورة هي ﴿ءَايَٰتُ﴾ من ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ الكريم ﴿و﴾ هي آيات ﴿كِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ لمَا فيه من العلوم والحكم، كما أنه مظهر للحق من الباطل.

وهذا الكتاب: ﴿هُدٗى﴾ من الضلال، ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾ بالجنة ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ به.

أتحبون أيها الكرام معرفة هؤلاء المؤمنين به، المبشرين بالجنة؟ إنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾

يعني: الموصوفون بهذه الصفات الثلاث:

الأولىٰ: إقامتهم للصلاة.

فهم ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يحافظون عليها، ويؤدونها تامة، كاملة.

الثانية: إيتاؤهم للزكاة.

﴿و﴾ هم الذين ﴿يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ من أموالهم.

الثالثة: تصديقهم باليوم الآخر.

﴿وَهُمْ﴾كذلك ﴿بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وله بالعمل الصالح يستعدون.

وبالنسبة لهذه الصفة الثالثة، فإن مَن لم يؤمن باليوم الآخر فإن الله عز وجل يهدده، قائلًا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ لأنهم لا يؤمنون بالغيب أصلًا، قد ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة، وذلك بتركيب الشهوة فيهم، حتىٰ رأوها حسنة.

لذلك ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يستمرون عليها، وينهمكون فيها.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ﴾ الجزاء التالي:

أولًا: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: العذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: الخسارة الفادحة ﴿وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وذلك لمصيرهم إلىٰ النار المؤبدة عليهم.

ثم يوضح الله مصدر هذا القرآن في خطاب إلٰهي للنبي ﷺ، حيث يقول له:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

يعني: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتُلَقَّى﴾ وتؤتىٰ ويوحىٰ إليك هذا ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ من الكريم ﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

ما دام مصدر القرآن هو الحكيم العليم، سبحانه وتعالىٰ: فخذ **من آثار** حكمته وعلمه هذا القصص، الذي نؤنسك به، ونعلمك وأمتك من خلاله.

وهذه هي **القصة الأولىٰ** وهي: قصة موسىٰ عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾

اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام ﴿لِأَهْلِهِۦٓ﴾ لزوجته عند عودته من أرض مدين إلىٰ

مصر ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ رأيت من بعيد ﴿نَارٗا﴾ سأذهب إلىٰ أهلها، و ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا﴾ أي: من عندها إما ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق الذي يوصلنا إلىٰ مصر.

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ شعلة منها ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ تستدفئون بها من هذا البرد الشديد.

وذهب موسىٰ إلىٰ النار..

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾

فلما وصل موسىٰ إلىٰ هذه النار ﴿نُودِيَ﴾ أي: سمع نداءً يقول: يا موسىٰ ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: بارك الله مَن في مكان النار، وهو: أنت ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: بارك حول مكانها، وهي: البقعة المباركة.

﴿و﴾ يقول أيضا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ويقول ثالثاً: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يخاطبك ويناجيك.

وكان هذا الحديث الإلٰهي مقدمة وتمهيدًا، لمَا سيظهر الله علىٰ يده من المعجزات.

حيث قال له:

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١﴾

وبالفعل ألقى موسىٰ من يده عصاه، ولكنه فوجئ بالعصىٰ تهتز، إنها تتحرك، لقد انقلبت حية، خاف منها موسىٰ ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ رجع موسىٰ للخلف ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ ولم يرجع إليها.

وهنا، قال له ربه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ منها، حيث ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ عندي ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ من حية، أو غيرها.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَۚ﴾ فهو الذي يخاف، بل إن مَن ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ فعله وقوله ﴿حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ كان منه ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ﴾ له ﴿رَّحِيمٞ﴾ به.

واطمأن موسىٰ، وثبت، ووقف يستمع لمَا يوحىٰ إليه. فكان الأمر الثاني:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

ونفَّذ موسىٰ الأمر وأدخل موسىٰ يده في جيبه وأخرجها، فخرجت لا سمراء كما كانت، بل بيضاء من غير مرض، لها شعاع مثل شعاع الشمس.

ثم قال له ربه: هذه آية وعلامة علىٰ نبوتك ضمن ﴿تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ تدل علىٰ وحدانية الله وقدرته نرسلك بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ﴾ في مصر، تقنعهم بها في دعوتك إياهم إلىٰ الإيمان بالله، حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

وعرف موسىٰ أنه نبي. ذهب موسىٰ إلىٰ فرعون وقومه يبلغهم رسالة الله، وبلغهم رسالة الله، وأراهم آيات الله ومعجزاته.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا مع موسىٰ ﴿مُبْصِرَةً﴾ واضحة مقنعة، ﴿و﴾ لم يؤمنوا بها، بل ﴿جَحَدُوا۟﴾ ولم يقروا ويعترفوا ﴿بِهَا﴾ كفرًا وعنادًا ﴿و﴾ قد ﴿ٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أنها صادقة، وأنها من عند الله، وذلك ﴿ظُلْمًا﴾ منهم ﴿وَعُلُوًّا ۚ﴾ وتكبراً علىٰ الله وآياته!! عاقبناهم بالإغراق في البحر، وأهلكناهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بهذا الإهلاك نظرة اعتبار وتدبر..!!

وبذلك انتهت قصة موسىٰ عليه السلام.

وإليك **القصة الثانية** وهي: قصة داود وسليمان عليهما السلام. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ابنه ﴿عِلْمًا﴾ بالقضاء بين الناس، ومنطق الطير وغير ذلك، فعملا به، وأفادا منه.

﴿وَقَالَا﴾ بلسان الحمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من علم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذي لم يؤتَ علمًا، والذي لم يؤتَ مثل علمنا.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

أي: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أباه ﴿دَاوُۥدَ﴾ في النبوة والعلم، دون باقي أولاده.

﴿وَقَالَ﴾ سليمان عليه السلام ـ مناديًا ومُعْلِمًا بما أفاض الله عليه من خير وإنعام، ولافتًا أنظار الناس إلىٰ هذه المعجزات ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا﴾ من ربنا ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ ما يفهم من أصواته ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ أوتي منه الأنبياء والملوك.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أيها الناس ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح من الله تعالىٰ.

ثم يبين الله بعض هذا الفضل فيقول:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

وذات مرة جمع الله ﴿لِسُلَيْمَٰنَ﴾ عليه السلام ﴿جُنُودُهُۥ﴾ التي سخرها له ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ من كل مكان.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجعلون صفوفًا لا يتقدم أحد منهم علىٰ أحد، في نظام بديع، وتناسق محكم.

وصاروا يطوفون بأنحاء المملكة..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: سار سليمان وجنوده ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟﴾: مروا ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ لقومها من باب النصيحة، وقد رأت جند سليمان قادمون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟﴾ فورًا ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾ حتى ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ الكثيرون ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بكم؛ لصغر حجمكم.

وسمعها سليمان، وفهم قولها:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان عليه السلام ﴿ضَاحِكًا﴾ متعجبًا ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ الواعي، المحذِّر لقومها، الناصح لهم.. ﴿وَقَالَ﴾ لربه داعيًا: يا ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ عليّ بالنبوة والملك والعلم ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ فهما سبب وجودي.

﴿و﴾ يا رب أعني ﴿أَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ يسعد العباد، ويصلح البلاد، و ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ أنت.

﴿وَأَدْخِلْنِى﴾ يا رب ﴿بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين أنعمت عليهم ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [النساء: ٦٩].

وسار سليمان وجنوده بعد ذلك..

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

يعني: ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ سليمان ﴿ٱلطَّيْرَ﴾ أي: نظر إليها، وتمَّم عليها معرفة لأحوالها، واطمئنانًا على أمورها، شأن القائد الصالح الناجح، ولم ير سليمان الهدهد!!

﴿فَقَالَ﴾ لمن معه ﴿مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ بين الطيور؟ أهو هنا ولكنه مستتر عن عيني ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ عني، وعن تواجده مع جنودي؟

وعرف سليمان عليه السلام، أن الهدهد غائب، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على غيابه بدون إذن مني ﴿أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ عقابًا على هذا الغياب ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى﴾ على غيابه هذا ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ عذر واضح، وفي هذه الحالة لا أعذبه، ولا أذبحه.

ولمَّا علم الهدهد بهذا التهديد الملكي عاد سريعًا، يقول الله تعالىٰ:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: غاب الهدهد زمانًا يسيرًا، وجاء إلىٰ سليمان، وسأله سليمان ـ بالطبع ـ عن سر غيابه ﴿فَقَالَ﴾ الهدهد ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: أطلعت علىٰ شيء لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، وكأن سليمان سأل: أين كنت؟ وما هذا الذي علمت به وحدك؟ فقال: ﴿و﴾ هو أني ﴿جِئْتُكَ مِن﴾ عند ﴿سَبَإٍ﴾ وهي قبيلة كبيرة باليمن، ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر صادق.

قال سليمان: وما هذا الخبر؟ قال الهدهد:

﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾

يعني: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ في سبأ أمرها عجيب، ثم أخبر الهدهد سليمان عنها بهذه التفاصيل، فقال:

أولًا: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: ملكة علىٰ قومها.

ثانيًا: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن﴾ متاع الدنيا، وما يحتاجه الملوك من ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾.

ثالثًا: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ كبير فخم مزخرف.

ثم أخبر عنها وعن قومها بقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي نوحده ونعبده ونسجد له، وهذا من عمل الشيطان.

﴿و﴾ قد ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هذه، وهي عبادة الشمس

﴿فَصَدَّهُمْ﴾ بذلك ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق في معرفة الله ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ بسبب ذلك ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ سبحانه.

ثم وصف ربه تعالىٰ قائلًا: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ المختفي ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من مطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من نبات.

﴿و﴾ هو سبحانه الذي ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في قلوبكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتكم.

وهو: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وسمع سليمان من الهدهد أخباره، أتدرون ماذا فعل؟

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿سَنَنظُرُ﴾ فيما قلت؛ لنعرف ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنتَ﴾ فيه ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لتتخلص مما نريد أن نفعله بك من العذاب أو الذبح؟

ولكن كيف يعرف ذلك؟ انظروا، قال له:

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: كتب سليمان كتابًا إلىٰ هذه الملكة التي أخبره بها الهدهد، وأعطىٰ هذا الكتاب للهدهد، وأعطاه أيضاً تعليمات واضحة، حيث قال له: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إليها وقومها هؤلاء.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني ابتعد عنهم قليلًا بحيث تراهم وتسمعهم؛ لتعرف ما يكون في أمرهم.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يكون ردهم علىٰ كتابنا إليهم.

وأخذ الهدهد كتاب سليمان عليه السلام وطار به إلىٰ سبأ باليمن، ودخل علىٰ الملكة، واسمها بلقيس، وحولها جندها، وألقىٰ إليها الكتاب. وفوجئت بذلك. ولكنها أخذت الكتاب وقرأته، وعرفت ما فيه ثم..

obeikandl.com

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعني: اتجهت إلىٰ مَن في مجلسها، وأخبرتهم بهذا الأمر العجيب الذي حدث أمامهم ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾ كما رأيتم ﴿أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ﴾. ثم وصفت الكتاب قائلة ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: أن ما فيه كلام طيب، ولا عيب فيه.

ثم بينت مصدر الكتاب، ومَن الذي أرسله بقولها ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الكتاب ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ويبدو أن سليمان عليه السلام كان معروفًا لها ولقومها، ولذلك لم يسأل واحد منهم عن سليمان بل سكت الجميع. ثم قرأت مضمون هذا الكتاب: ﴿... وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، منتهىٰ الاختصار استفتاح للخطاب باسم الله، ونهي عن التكبر والاستعلاء، وأمر بالحضور إليه خاضعين مؤمنين بالله عز وجل.

وفكرت بلقيس وكانت حكيمة ذكية، الأمر ليس سهلًا، إن الخطاب من سليمان وهو ليس بالشخص العادي، وحامل الخطاب هدهد، وهو ليس بالحامل العادي لمثل ذلك، وهذا الخطاب ليس عاديًا، فهو خطاب كريم من ملك كريم، ومضمونه يتعلق بأمر عظيم، وهو أمر العقيدة. إذًا الأمر يحتاج إلىٰ مستشارين، لذلك:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿أَفْتُونِى﴾ يعني أشيروا عليَّ ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾ هذا، ودلوني ماذا أفعل، فأنا ﴿مَا كُنتُ﴾ قبل ذلك، كما تعرفون عني ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ برأي فيه وحدي ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ وتحضرون، وتبدون فيه رأيكم؟

وبذلك: أشركتهم معها تطييبًا لخاطرهم، وضمانًا لاجتماع كلمتهم، ووحدة صفهم، أمام هذا الأمر الخطير.

فماذا قالوا لها، وهي تستنجد بهم:

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

وفهم القوم منها أنها تريد الحرب، أو أنهم اغتروا بقوتهم التي كانوا عليها، وسلاحهم الذي كانوا يملكونه، إذْ: ﴿قَالُوا﴾ لها ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ في أجسادنا وأسلحتنا ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قوة وخبرة عالية في حروبنا فاطمئني من جهتنا.

﴿و﴾ لكن ﴿الْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ ونحن مطيعون لك .﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ونحن ننفذ ما تشائين، وما تأمرين به.

ولأنها حكيمة لم تفتن بهذه القوة، ولأنها عاقلة لم ترد لشعبها الهلاك، ولا لبلادها الدمار، حيث قالت لهم:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لم تسترح بلقيس لفكرة الحرب، وبيَّنت لهم أضرارها على البلاد والعباد. واقترحت أسلوب الهدايا والمراسلات والمفاوضات قائلة ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ أي: إلى سليمان وجنوده ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ نخطب بها وُدَّه، وندفع بها ضرره، ونختبر بها قصده.

﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ وعلى ضوء ما يرجعون به نفكر ماذا نفعل في الخطوة التالية؟ وجهزت الهدية. وأرسلتها إلى سليمان عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ رسولها ﴿سُلَيْمَانَ﴾ بالهدايا ﴿قَالَ﴾ له سليمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ من عندكم، لأتركم على شرككم وكفركم بالله!! هذا لا يمنعني أبدًا من دعوتكم للإيمان ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ من النبوة، والملك والمال ﴿خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ من متاع الدنيا وزينتها فضلًا عن أني لا أفرح بما حملتموه إليَّ ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ هذه ﴿تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم حصرتم اهتمامكم ولذاتكم في اتباع أهوائكم. لذلك لا أقبل هديتكم ورشوتكم هذه، ولا آخذها منكم.

ثم قال له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بهديتهم هذه، ثم كاشَفه بما سيفعل معهم؛ حتىٰ لا يأخذهم علىٰ غِرَّة؛ لعلهم بهذه المكاشفة يفكرون، ويعرفون الصواب فيهتدون، قال له: قل لهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ لنحاربهم ﴿بِجُنُودٍ﴾ كثيرة قوية ﴿لَّا قِبَلَ لَهُمْ﴾ ولا طاقة عندهم ﴿بِهَا﴾.

﴿و﴾ كذلك سننتصر ـ بعون الله ـ عليهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من بلادهم ﴿أَذِلَّةً﴾ بسبب كفرهم ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ بسبب أسرهم.

وخرج رسول بلقيس بهداياها من عند سليمان عائدًا لبلاده، وفورًا كان قرار سليمان أن يحضروا عرشها عنده، قبل حضورها هي، لذلك:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يعني: مَن منكم يستطيع أن يأتيني بعرش بلقيس، قبل أن تأتيني هي وقومها مأسورين مستسلمين؛ ليكون ذلك دليلًا لها علىٰ نبوته؟ وفي الحال:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ مارد ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وهو واحد من جنود مملكة سليمان ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ كما تريد، وذلك ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مجلسك هذا.

﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ علىٰ إحضاره، ونقله، وحمله ﴿لَقَوِىٌّ﴾ وعلىٰ ما فيه، وما يحتويه ﴿أَمِينٌ﴾.

لكن يبدو أن سليمان عليه السلام أراد مَن هو أسرع في تحقيق هذه المهمة، لذلك..

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

وبالفعل، قبل أن يغمض سليمان عليه السلام عينيه، وجد عرش بلقيس بين يديه، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾: لم يحطمه، ولم ينتقل إليه، ويستولي عليه بل ﴿قَالَ﴾ لنفسه اعترافًا بالنعمة، ولمن حوله تعليمًا لهم واجب الشكر: ﴿هَٰذَا﴾ الذي حدث هو ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ عليّ. وكان هذا الفضل ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ ليختبرني ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ إنعامه هذا

﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ فلا أشكر؟ ثم قرر الحقائق التالية قائلًا:

﴿وَمَن شَكَرَ﴾ الله على نعمه ﴿فَإِنَّمَا﴾ جزاء ما ﴿يَشْكُرُ﴾ عليه ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بترك الشكر على النعم ﴿فَإِنَّ رَبِّى﴾ سبحانه ﴿غَنِىٌّ﴾ عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعام، حتى على مَن لم يشكره.

ثم التفت إلى مَن حوله، و:

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

أراد سليمان أن يختبر ذكاءها، وقوة ذاكرتها، قبل أن يحادثها في شيء بعد حضورها.

إذْ ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟﴾ غيروا ﴿لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتغيير بعض صفاته، ثم ﴿نَنظُرْ﴾ إلى ما يكون منها ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ إليه، وتعرفه بعد التغيير الذي حدث؟ فندرك ذكاءها وقوة ذاكرتها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته.

ونفذوا ما طلب سليمان، ونكروا عرش بلقيس، قبل أن تحضر من بلادها.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ بلقيس من مملكة سبأ باليمن إلى سليمان عليه السلام ببلاد الشام، أطلعوها على عرشها الذي كانت قد تركته باليمن، دون إعلامها أنهم أحضروه من هناك، و ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ يعني أمثل هذا عرشك؟ وكان فيها ثبات وعقل وفطنة، إذْ لم تقل إنه هو؛ لأنها تركته هناك باليمن، ولم تقل لا؛ لأنها رأت فيه من أوصاف عرشها الكثير، لذلك قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ وكان هذا أبلغ رد، وأحسن جواب.

ولمَّا سمع سليمان جوابها عرف ذكاءها، وعلمها، ثم قال مبينًا فضل العلم، وشاكرًا نعم الله عليه: ﴿و﴾ أما نحن فقد ﴿أُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ إنعامًا من الله علينا ﴿وَكُنَّا﴾ له ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أمرنا.

ثم أضاف قائلًا:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ الذي ﴿صَدَّهَا﴾ ومنعها عن الإسلام ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ بالله، يعبدون غيره، فصارت مثلهم، تشاركهم كفرهم، مع علمها وذكائها، ولذلك لم تكن رؤية العرش منقولًا هكذا كافية لأن تعلن إسلامها.

ومن هنا: قرر سليمان عليه السلام أن يريها معجزة أخرىٰ، لتكون دليلًا لها علىٰ نبوته إذْ..

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

أي: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ﴾ وهو القصر، وكان بناءً عظيمًا بناه سليمان بجنوده، وجعل أرضيته زجاجًا، تحته ماءً ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ هكذا ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ من الماء، ﴿و﴾ لمَّا أرادت الدخول تنفيذًا لأمر سليمان ﴿كَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ﴾ للخوض في هذا الماء الذي حسبته ماءً.

وهنا: ﴿قَالَ﴾ لها: إنه ليس ماءً، بل هو ﴿صَرْحٌ﴾ بناء ﴿مُّمَرَّدٌ﴾ أملس بني ﴿مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾ زجاج، وفي الحال أدركت أن سليمان نبيًّا، وعرفت أن الذي أعطاه القدرة علىٰ هذه الأشياء، وسخر له مَن يفعلها هو الله سبحانه وتعالىٰ الذي يستحق أن يعبد وحده، لذلك: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بالكفر، وعبادة غير الله. ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ الآن نفسي ووجهي وأمري ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وبهذا انتهت قصة سليمان عليه السلام بما تضمنته من قصص النملة، والهدهد، وبلقيس ملكة سبأ.

وتبدأ القصة الثالثة وهي: قصة صالح عليه السلام. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ نبيًّا، يقول لهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ بالنسبة لمَا دعاهم إليه فريق آمن معه، وفريق كفر بدعوته ورسالته، وصاروا ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ مع بعضهم البعض، بسبب ذلك.

﴿قَالَ﴾ صالح لمن كفر ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي العذاب ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي إيمانكم يعني لم تكفرون فتستحقون العذاب بدلًا من إيمانكم الذي بسببه تنعمون، ولا تعذبون، بل تدخلون الجنة؟

يا قوم: ﴿لَوْلَآ﴾ هلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ من ذنوبكم وتقلعون عن كفركم، وتؤمنون به ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ من غضبه وعذابه؟

ماذا كان موقفهم من دعوته هذه؟

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ له ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ تشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ ولم نعد نرىٰ من وجوهكم إلَّا كل سوء ومصيبة تنزل بنا..! وأجابهم بكل قوة ووضوح:

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي: ما ينزل بكم من سوء وغيره، هو قدركم المكتوب لكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾، وليس بسببنا كما تدعون.

﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ في حقيقة الأمر ﴿قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بالنعمة لتشكروا فتؤمنوا، أو لتطغوا فتكفروا، وتختبرون بالنقمة لتصبروا وتؤمنوا، أو لتجزعوا وتكفروا!!

وظل صالح يدعوهم، وهم علىٰ هذا الحال..

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني: ﴿وَكَانَ فِى﴾ هذه ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ طبيعتهم كلها الفساد، وفعلهم كله الفساد، لا صلاح عندهم، ولا أمل فيه لديهم.

هؤلاء التسعة ﴿قَالُوا۟﴾ وقد ﴿تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وتعاهدوا فيما بينهم قائلين

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي: صالحًا ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ قتلى بأيدينا، لنستريح منه، ومما يدعوننا إليه.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بعد قتله وأهله ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لأقاربه الباقين، حتىٰ لا يطالبون بدمه: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما نعرف مَن الذي قتل أهله، فضلًا عن معرفة قاتله هو، فكيف نتهم بقتلنا لهم؟ هذا لم يحدث منا إطلاقًا.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما قلناه لكم.

يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أي: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ حيث أخفوا ما بيَّتوه من نية القتل لصالح عليه السلام وأهله، ﴿وَمَكَرْنَا﴾ نحن ﴿مَكْرًا﴾ بهم، وهو إهلاكهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنا، ولكنا نشعر بهم، ونحيط بكل أحوالهم.

ثم يقول تعالىٰ مبيّنًا ما فعله بهم نتيجة كفرهم، وإفسادهم، وسكوت قومهم علىٰ ظلمهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

الأمر في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ﴾ لكل الناس، وهو أمر بالنظر للتدبر والاعتبار والاتعاظ وقد دمرهم الله أجمعين، المفسدين والساكتين عليهم، الراضين بفعلهم، وذلك بالصيحة، كما هو موضح في مواضع أخرىٰ من كتاب الله، يقول الله تعالىٰ:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ خالية مُخَرَّبَة ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي حدث لقوم صالح ﴿لَءَايَةً﴾ مفيدة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله ويوحدونه، وهذا بالنسبة للكافرين.

وأما هو عليه السلام والمؤمنين به، فيقول تعالىٰ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ غضب الله وعذابه، من هذا الهلاك والدمار.

وبهذا انتهت قصة صالح عليه السلام، كما حكتها هذه السورة الكريمة، ثم يقص المولى علىٰ حبيبه تثبيتًا له ولمن معه، وتعليمًا لنا وللمسلمين إلىٰ يوم القيامة:

القصة الرابعة وهي: قصة لوط عليه السلام. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهو يدعوهم إلىٰ الإيمان بالله وتوحيده ﴿أَتَأْتُونَ﴾ أتفعلون ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهي اللواط ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون إلىٰ بعضكم البعض علانية.

يا قوم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ وهذا لا يليق بكم كبشر.

﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ يا قوم ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عواقب فعلكم هذا، وعقوبته عند الله عز وجل.

فماذا كان جوابهم له؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ له، علىٰ دعوتهم للإيمان ونهيه لهم عن إتيان الفاحشة ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ لبعضهم البعض ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ مع لوط ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ وأبعدوهم عنكم.

ثم قالوا استهزاءً بلوط عليه السلام والمؤمنين معه ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ منكم، ويبعدون أنفسهم عنكم، بل يريدون منكم ترك لذاتكم.

ما هؤلاء الطغاة!! يرفضون الدعوة إلىٰ الطهر، ويسخرون من أهلها!!

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يعني: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ الذين آمنوا معه من الهلاك ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ التي لم تنكر عليهم فعلهم ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ وحكمنا عليها أن تكون ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الهالكين.

﴿و﴾ أهلكناهم، بأن ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ من حجارة من سجيل ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مطرهم. وبذلك انتهت قصة لوط عليه السلام

وبعد أن ذكر له أحوال هؤلاء الأنبياء الذين أهلك الله عز وجل مكذبيهم تمامًا، ثم يعود الخطاب الإلٰهي المباشر مع محمد ﷺ، الذي قال له ربه في مطلع هذه السورة:﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]. ليقول له أيضًا:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يعني: ﴿قُلِ﴾ يا محمد **أولًا:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أهلك المكذبين من الأمم السابقة، ولم يفعل ذلك مع المكذبين من أمتي، بل أنعم عليهم بالقرآن.

﴿و﴾ **ثانيًا:** قل ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ واختار لرسالته من الأنبياء، فصبروا علىٰ ما أوذوا في تبليغهم أقوامهم دعوة الله.

وثالثًا: قل للكفار ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه غيره، مما لا ينفع ولا يضر..؟

نلاحظ: أن هذا الخطاب الإلٰهي للنبي ﷺ؛ يعتبر تمهيدًا لمَا يأتي بعده من الدلالات علىٰ وحدانية الله وقدرته سبحانه من خلق أصول النعم وفروعها علىٰ عباده.

يقول الله تعالىٰ أولًا:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وهذا دليل يتعلق بالسمٰوات، والمعنىٰ: آلهتهم التي يبعدونها غير الله خير، أم هذا الإلٰه الذي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بهذا النظام البديع الفريد!!؟

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿مَآءً﴾ مطرًا ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ يعني بهذا المطر،

لكم ﴿حَدَآئِقَ﴾ بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ منظر جميل بهيج النفوس، ويريح العيون.

و ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ وما تستطيعون أنتم ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ علىٰ هذا النحو، المتعدد الأصناف والألوان، والطعوم.

أيهما إذًا خير؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد، في هذه الحالة؟

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق إلىٰ الباطلُ وعن الصواب إلىٰ الخطأ.

ثم يقول الله تعالىٰ ثانيًا:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

وهذا دليل علىٰ قدرة الله ووحدانيته يتعلق بالأرض، والمعنىٰ: أآلهتهم التي يعبدونها غير الله خير، أم هذا الإله الذي: ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقرة، لا تميل ولا تضطرب، مع حركتها السريعة الدوَّارة لتطيب لكم الحياة عليها.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ عذبة، تشربون منها.

﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ جبالًا ﴿رَوَٰسِيَ﴾ تمنعها من الاهتزاز.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا﴾ بحيث لا يطغى المالح علىٰ العذب فيفسده.

أيهما إذاً خير؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد في هذه الحالة؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وحدانيته وقدرته علىٰ ذلك.

ثم يقول الله تعالىٰ ثالثًا:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

وهذا دليل يتعلق باحتياج الخلق إليه سبحانه، والمعنىٰ: أآلهتهم التي يعبدونها غير الله خير، أم هذا الإله الذي: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ الذي نزل به وأحوجه مرض، أو فقر، أو كارثة، إلىٰ اللجوء إلىٰ الله ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ ليرفع عنه ذلك ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الذي نزل به.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ﴾ كذلك ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضًا فيها بالسكنى، والمنفعة، والملك.

أيهما إذًا خير؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد في هذه الحالة؟

حقًّا: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون قدرة الله، وتوحدونه.

ثم يقول الله تعالى رابعًا:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وهذا دليل على قدرة الله ووحدانيته باحتياجات خاصة للخلق في أوقات خاصة كذلك. والمعنى: آلهتهم التي يعبدونها غير الله خير، أم هذا الإله الذي: ﴿يَهْدِيكُمْ﴾ يرشدكم إلى ما تريدون الوصول إليه ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾ بعلامات الأرض ﴿وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ بالنجوم ليلًا.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ مبشرات بالخير ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ﴾ بإنزال المطر، تنتفعون به، وتحيون عليه.

أيهما إذًا خير؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد في هذه الحالة؟ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ وتنزّه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه من آلهة.

ثم يقول الله تعالى خامسًا:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

وهذا دليل على قدرة الله تعالى ووحدانيته يتعلق بالبعث والإعادة، والمعنى: آلهتهم لتي يعبدونها غير الله خير، أم هذا الإله الذي: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ في الأرحام من نطفة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ خلقًا آخر بعد الموت، وقد قامت لهم الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالإنبات. ومن المعلوم أن الرزق به يحيا الخلق، وبدونه تنقطع الحياة؛ ولذلك ذكره الله.

أيهما إذًا خير؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد في هذه الحالة؟

﴿قُلْ﴾ لهم إن كان عندكم دليل بهذا ﴿هَاتُوا۟﴾ إذًا ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: دليلكم الذي بسببه تكفرون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن عندكم دليلًا علىٰ أن معي من الآلهة مَن يقدر علىٰ شيء من ذلك. وبالطبع فهم غير صادقين!!

هذا، وبعد أن بيّن الله من الأدلة علىٰ وحدانيته أنه مختص بالقدرة علىٰ كل شيء، استدل علىٰ وحدانيته: بأنه مختص بعلم الغيب. حيث يقول الله عز وجل:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

نزلت هذه الآية لمَّا سألوه ﷺ عن وقت قيام الساعة، فقال له ربه: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ومن في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ شيئًا من الغيب. ولكن الله وحده هو الذي يعلم ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ كله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ جميعًا، سكان السمٰوات والأرض ﴿أَيَّانَ﴾ متىٰ ﴿يُبْعَثُونَ﴾؟ ولذلك ليست الفائدة في معرفة وقتها بل الفائدة في الاستعداد بالعمل الصالح لها.

ثم يستهزئ بهم رب العزة قائلًا:

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يعني: هم لا يسألون للمعرفة ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ وتلاحق ﴿عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ وشؤونها، حتىٰ سألوا عن وقتها؟ ليس كذلك ﴿بَلْ هُم﴾ يؤمنون بها، ولكنهم ﴿فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ﴾ حتىٰ سألوا عن وقتها؟ ليس كذلك أيضًا ﴿بَلْ﴾ الحقيقة أنهم ﴿مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: عميت قلوبهم، ولا فائدة منهم، ولا رجاء فيهم.

وبالنسبة لسؤالهم عن وقت الساعة، فهم أصلًا يستبعدونه وينكرونه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يعني: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله، وينكرون قدرته ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ بعد الموت ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾ كذلك ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من قبورنا للبعث والحساب والسؤال

والجزاء؟ هذا لا يكون أبدًا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ الكلام ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل محمد، ولم يحدث شيء منه.

ولذلك ما ﴿هَٰذَآ﴾ الكلام ﴿إِلَّآ﴾ من ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ وحكايات ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ التي ليس لها أساس من الصحة، ولأجل هذا فنحن لا نصدقه، ولا نؤمن به.

وبالتالي، فإن الله تعالىٰ يهددهم علىٰ هذا التكذيب، ويخوفهم بما حدث للمكذبين من قبلهم، حيث يقول عز وجل:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين لك، المنكرين للبعث ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ علىٰ تكذيبهم؛ إذْ مشاهدة آثار ما نزل بهم من العقاب كفاية لأولي الألباب.

هذا، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لعدم إيمانهم ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ به، ويدبرون لك من الأذىٰ، فإنا ناصروك عليهم.

ثم يحكي ربنا بعض ما يستهزءون به في قوله جل وعلا:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

يعني: ويقول هؤلاء الكافرون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالعذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه آت؟ لِمَ لَمْ يأتِ؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ﴾ قرب ﴿لَكُم﴾ مجيء ﴿بَعْضُ﴾ هذا لعذاب ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مجيئه.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في تأخير العذاب عنهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لأنهم لا يؤمنون بوقوعه أصلًا.

هذا، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ سبحانه ﴿لَيَعْلَمُ﴾ عنهم ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وتخفيه من الاستهزاء بك، والإنكار لك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ منه بألسنتهم.

﴿و﴾ ذلك لأنه ﴿مَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ صغيرة ولا كبيرة ﴿إِلَّا﴾ هي مسجلة ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

ثم تنتقل الآيات للحديث عن القرآن، الذي هو دليل نبوة محمد ﷺ فتقول:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ من عند الله تعالىٰ؛ لأنه ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مما لا يعلمه محمد ﷺ.

﴿و﴾ أيضًا ﴿إِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الدنيا والآخرة، إن عملوا به.

وبعد أن بين الله تعالىٰ أن القرآن من عنده، وأنه معجز، وأنه دال علىٰ نبوة محمد ﷺ، وضح أنه سبحانه هو الذي يفصل في أمر هؤلاء المعاندين، فقال جل جلاله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ يوم القيامة، كغيرهم ﴿بِحُكْمِهِۦ ۚ﴾ العادل فيهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به. **لذلك**:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

يعني: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: ثق به وبنصره لكُ حيث:

أولًا: ﴿إِنَّكَ عَلَى﴾ الدين ﴿ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الواضح.

ثانيًا: إنك قد بلغتهم، ولكنك ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهم موتىٰ القلوب، لا يسمعون.

ثالثًا: إنك قد بلغتهم، ولكنك ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ وهم صم، قد تولَّوْا عنك، وانصرفوا مدبرين، لا يسمعون.

رابعًا: إنك قد بلغتهم، ولكنك لا تهدي ﴿ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ وهم عمي، قد ضلوا فهم لا يهتدون.

يا محمد: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ولأن الكفار كانوا يستعجلون العذاب الذي يهددهم به محمد ﷺ لعدم إيمانهم، ولأن العذاب الأكبر ينزل بهم في يوم القيامة، فإن الله عز وجل يذكر بعض علامات مجيء يوم القيامة، فيقول عز وجل:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني حق العذاب، وجاء وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾ بقدرتنا ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كعلامة علىٰ قيام الساعة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ حين خروجها.

ومن جملة كلامها الذي تقوله ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: آيات الله ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾.

ثم يذكر الله بعض مشاهد يوم القيامة، فيقول جل شأنه:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يعني: في يوم القيامة يحشر الله، ويجمع بعد الحشر العام من كل أمة ﴿فَوْجًا﴾ أي: جماعة من الذين يكذبون، وهم كثيرون، حتىٰ إذا اجتمع جمعهم وتكامل عددهم، قال لهم ربهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ وأنتم ﴿لَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: من غير فهم لها

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ أخبروني ماذا كان عملكم الذي دفعكم إلىٰ كفركم؟ إنه لا شيء سوىٰ العناد ﴿و﴾ بذلك ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ وحُقَّ العذاب ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأنه لا عذر لهم يبدونه، ولا كلام لهم ينطقونه.

وهذا دليل علىٰ يوم القيامة الذي ينكرونه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ ذلك لمنفعتهم وليس عبثًا، ومَن قدّر ذلك فهو قادر علىٰ البعث والإعادة في يوم القيامة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: خلق الليل والنهار ﴿لَـَٔايَٰتٍ﴾ كلها دلائل علىٰ وحدانية الله وقدرته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستعدون بالعمل الصالح ليوم القيامة.

ثم يعود السياق إلىٰ ذكر بعض مشاهد يوم القيامة، فيقول الحق جل وعلا:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ النفخة الأولىٰ، ﴿فَفَزِعَ﴾ فزعًا يفضي إلىٰ الموت، كل ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم يموتون ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من الملائكة، وهذه النفخة هي الأولىٰ المذكورة في قوله تعالىٰ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ طوعًا لأمره سبحانه ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغرين.

وهذا دليل آخر علىٰ يوم القيامة الذي ينكرونه.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

أي: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ الآن ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ واقفة ﴿وَهِىَ﴾ في الحقيقة

﴿تَمُرُّ﴾ وتسير ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ الذي تراه يسير، وذلك ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ صنعه.

حقًّا: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ولم يخلق هذه الأشياء عبثًا، ولم يخلقكم عبثًا وهذه كلها دلائل علىٰ وحدانية الله وقدرته، فعلىٰ العقلاء أن يستعدوا بالعمل الصالح لىوم القيامة.

في هذا المقام يكون الحديث عن الجزاء في يوم القيامة، فيقول الله تعالىٰ:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

أي: أن كل ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي كل ما يرضي الله تعالىٰ من الأقوال والأفعال ﴿فَلَهُۥ﴾ في هذا اليوم ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وهو الجنة.

﴿وَهُمْ﴾ كذلك ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ لا يخافون.

﴿و﴾ أن كل ﴿مَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما يخالف شرع الله تعالىٰ من الأقوال والأفعال ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ جزاءً عادلًا لهم، ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي.

يا حبيبي يا محمد، قل لهؤلاء جميعًا:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ من ربّي بهذه الأشياء:

أولًا: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ الله وحده ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ وهي مكة المكرمة.

هو ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها أمانًا لكل مَن فيها.

﴿وَلَهُۥ﴾ سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ في الوجود، خلقًا وملكًا وتصرفًا.

ثانيًا: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الموحدين، المخلصين، المنقادين لأمره سبحانه، العاملين بشرعه.

ثالثًا: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ على الناس، وأبلغهم بما جاء فيه.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بهداه، واتبع ما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ ومنفعته راجعة إليه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن هداه وكفر بما فيه، أو أنكره ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فقط، وما عليَّ إلَّا البلاغ.

رابعًا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاني من نعمة النبوة والعلم، وعلى ما وفقني لطاعته، وتبليغ رسالته.

خامسًا: وقل للدنيا كلها ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ الله سبحانه ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته الموجودة في الأنفس والآفاق، والتي تضمنها القرآن الكريم ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ لتهتدوا بها، وذلك إلى يوم القيامة.

هذا، وما عليك بعد ذلك يا محمد من شيء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يا كل البشر، وسيجازى كل إنسان بما يستحق.

* * *